بدون واقع ، بدون حياة انتاجية للناس، لا يمكن ان يكون هناك فن

الفن تعبير دياليكتيكي جدلي عن واقع الحياة المادية

الى جانب البندقية

ينبغي ان نكافح بالفكر ضد الحركة الصهيونية وضد الافكار الرجعية

قبل ان نبدأ موضوعنا المتعلق بوجهة النظر الماركسية من قضية الفن بوصفه احد اشكال الوعي الاجتماعي ، لا بد لنا ان نقف قليلا عند الفهم العلمي للمجتمع بمختلف جوانبه .

فالمجتمع هو هيئة اجتماعية معقدة يكون تنظيمها الداخلي عبارة عن مجموعة من الروابط والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية .

وبمعنى اخر فان الظواهر الاجتماعية نوعين :

الاول : العلاقات المادية في المجتمع ويدخل ضمن هذا المفهوم العلاقات الاقتصادية والانتاجية والاجتماعية .

والثاني : العلاقات الفكرية او الروحية كما تسمى في بعض الاحيان وتدخل ضمن هذا المفهوم مختلف نواحي الحياة الروحية والفكرية للناس ولا سيما مختلف اشكال الوعي الاجتماعي ، كالايديولوجيا والنظريات السياسية والفلسفية والفن والعلم والاخلاق والوعي الحقوقي والديني .

البناء الفوقي والبناء التحتي

ان كلا من العلاقات المادية والروحية في المجتمع تلعب دورا هاما في حياة المجتمع وتؤثر في تطوره ، غير ان العلاقات المادية ولا سيما منها الانتاجية التي تنشأ بين الناس في سياق عجلة انتاج الخبرات المادية وهي ما يصطلح عليها بالقاعدة المادية ، او البناء التحتي ، هي التي تلعب الدور الحاسم في وجود وتطور المجتمع ، اما العلاقات الفكرية او ما يسمى (بالبناء الفوقي) فان وجودها يتحدد اساسا بوجود البناء التحتي اي بنمط العلاقات الاقتصادية الانتاجية في المجتمع ، والبناء الفوقي ليس في آخر المطاف سوى انعكاس للحياة الاقتصادية والمادية في وعي الانسان ووجدانه .

ومجموعة الشروط المادية لحياة المجتمع والتي يطلق عليها عادة « بالكيان الاجتماعي » ويعبر عنها بأسلوب انتاج للخبرات المادية حيث تحتل علاقات الانتاج بين الناس الدور الاهم في حياة المجتمع .

من هنا يجري الاستنتاج بأنه يجب البحث في مصدر حياة الناس الروحية والفكرية لا في عقول الناس واذهانهم ، في ظروف حياة المجتمع المادية .

فعالم الاجتماع البرجوازي الذي يبشر بنظرية التفرقة العنصرية ويدعو الى تقسيم الشعوب الى اجناس رفيعة واخرى حقيرة ، يفعل ذلك لا جهلا منه او تصورا من عقله أو نتيجة لاغراق معين في سيكولوجيته ، بل لانه آما ان يكون ممثلا للطبقة الرأسمالية التي تقوم مصالحها الانانية على حساب استغلال الكادحين والشعوب المستعمرة ، او لانه هو بالذات يحتل موقعا متميزا في نظام علاقات الانتاج كأن يكون رأسماليا او ملاكا عقاريا .

وطالما ان اشكال الوعي الاجتماعي التي تحدثنا عنها هي انعكاس عن واقع شروط حياة المجتمع المادية ، ولذلك فعندما يطرأ تغير على الشروط الحياتية للناس ، اي عند تغير اسلوب الانتاج بأسلوب اخر من الانتاج ، فان اشكال الوعي الاجتماعي وبالتالي البناء الفوقي بما في ذلك جهاز الدولة تتغير تبعا لتغير القاعدة الاقتصادية في المجتمع . فالتشكيلات الاجتماعية التي مرت بها البشرية وتمر بها تعرف اشكالا مختلفة من الوعي الاجتماعي ، ولكل من المجتمعات العبودية والاقطاعية والرأسمالية والاشتراكية ما يميزها من حياة روحية وفكرية .

ما المقصود بالوعي الاجتماعي ؟ المقصود بذلك مجموعة الاراء السياسية والحقوقية والاخلاقية والمعارف العلمية والفلسفية والدينية والادب والفن.

الفن والطبقات

ان كل اشكال الوعي الاجتماعي قد مرت بمختلف مراحل التطور ، فمثلا الفن كشكل من اشكال الوعي الاجتماعي نشأ منذ نشوء الانسان ، منذ ان انفصل الانسان عن عالم الكائنات الحية ، لذلك مثلا ، وجدنا من الانسان البدائي القديم ليس فقط الفأس التي يعمل بها ، ولا فقط ادوات الحرب التي يقاتل بها ، انما وجدنا كثيرا من النماذج الفنية ، من الصور والرسوم التي كانت تعبر عن شكل بدائي من اشكال الوعي الاجتماعي متجليا بهذه الصور الفنية . ففي ذلك الزمن السحيق في القدم كان الفن تعبيرا كاملا عن واقع الحياة المادية . ان رقص الناس البدائيين ، الرقص الجماعي كان تعبيرا عن نمط الحياة الجماعية المشتركة . لقد كان رقص الناس يماثل نمط حركتهم الانتاجية لجمع الثمار في الغابة ، ورقص الرجال العنيف كان تعبيرا عن صيد الحيوانات ، فكل تلك الحركات انما تعبر عن الواقع العملي للحياة الانتاجية للانسان ، ليس فقط هي انعكاس مجرد أو سلبي للواقع انما لها هدف .. هدفها ، هدف الرسوم ، الغناء ، الرقص المشترك . هو دعم الوحدة الكفاحية المشتركة لهؤلاء الناس ، باعتبار ان الانسان في ذلك الوقت الذي كان فيه ضعيفا امام عوامل الطبيعة ، وامام الحيوانات ، ضمن تجربة انتاجية محدودة ، كان يعوض عنها ، بالتصاق هذه المجموعات البشرية بعضها بالبعض الاخر . فكانت الحياة الجماعية المشتركة مسألة ضرورية بالنسبة لحياة الانسان القديم ، وطبعا على شاكلة الفن ايضا كل اشكال الوعي الاجتماعي كانت تعبيرا عن هذا الواقع ، لكن عندما انقسم المجتمع البشري الى طبقات ، عندما ظهر التقسيم الطبقي للمجتمع في ذلك الحين ، اول مرة في المجتمع العبودي ، نرى ان اشكال الوعي الاجتماعي بما فيها مختلف اشكال الفن بدأت تنحرف عن التعبير عن واقع الحياة المادية .. لماذا ؟ لان الناس الذين كانوا يعملون اساسا في امور الفن والفلسفة والعلوم .. الخ ، هم الطبقة المتميزة في المجتمع التي كانت تنظر للعمل نظرة احتقار ، تنظر الى النشاط الانتاجي للناس ، وكأنه شيء لا يليق بالاسياد ، فبدأت في هذه المرحلة من مراحل التطور للمجتمع بفن لا يعبر تعبيرا كاملا عن واقع الحياة المادية بسبب انعزال الطبقات السائدة المستغلة في الميادين الفنية والعلمية والفلسفية عن النشاط الانتاجي ، لان الناس الذين يعملون في النشاط الانتاجي هم الكادحون .. (العبيد) ، والاسياد لا يشتغلون ، ولكن طبعا بالرغم من هذا الانفصال عن واقع الحياة المادية واشكال التعبير الفني والفلسفي والعلمي لا بد ان تعبر هذه الاشكال في اخر المطاف عن واقع معين ، من هنا ظهرت ، بانقسام المجتمع الى طبقات اجتماعية متصارعة ، ظهرت مدارس مختلفة .. ظهرت ايديولوجيات مختلفة ، ايديولوجية الطبقة السائدة في المجتمع التي تعبر عن واقع سيطرتها واستغلالها ، وايديولوجية الطبقات الفقيرة المسحوقة .

الفن جزء من البناء الفوقي

ان الفن من وجهة النظر الماركسية اللينينية هو انعكاس للواقع . بدون واقع ، بدون حياة انتاجية للناس ، لا يمكن ان يكون هناك فن . ولكن هل ان الفن هو انعكاس فوتوغرافي لواقع الحياة المادية ؟ طبعا ان بعض علماء الاجتماع البورجوازيين ، يقولون أن الفن ليس الا تعبيرا وانعكاسا فوتوغرافيا لواقع الحياة . هذا بالحقيقة جزء من المسألة ، لانه ايضا ، العلم هو الاخر انعكاس لواقع الحياة المادية . الفلسفة هي انعكاس فكري تصوري عن واقع الحياة المادية . والايديولوجية ايضا .. الخ .

وهناك ايضا بعض علماء الاجتماع البورجوازيين يقولون أن الفن مجرد معاناة ذاتية معزولة عن الواقع . طبعا هذه المسألة مردودة ، لانه لا يمكن ان تأتي التصورات الفنية الا بالتعبير عن الواقع سواء كان هذا التعبير مباشرا او غير مباشر . على سبيل المثال ، انت الان جالس ربما تتخيل صورة وترسمها ، تستطيع ان ترسم شجرة . أو استاذ يطلب من التلاميذ ان يرسموا شجرة .. الشجرة اصبحت في الحقيقة مفهوما مجردا وموجودا في اذهان الناس من خلال الاحتكاك والمعرفة الحسية المباشرة لعدد لا يحصى من الاشجار ، لذلك لا يمكن ان يكون الفن تعبيرا عن المعاناة الذاتية ، اي تعبيرا مجردا عن واقع الحياة المادية ، حتى اذا اتخذ هذا الشكل ، اذ لا يمكن للانسان ان يتخيل شيئا غير موجود .. الفن بالمفهوم الماركسي اللينيني هو تعبير عن الواقع ، ولكنه ليس تعبيرا فوتوغرافيا ، تعبير فيه ناحية ايجابية ، يتعامل مع الواقع بمنظار المقاييس الجمالية .. اي ان الفن الحقيقي هو الذي يعكس الواقع ولكن لا يعكسه مائة في المائة .. مثلا ، نأخذ الفرق بين الفن كشكل من اشكال انعكاس الواقع والعلم كشكل من اشكال انعكاس الواقع . يعني الان عندما يأتي مؤرخ (بدو) ليتحدث عن الغزو الصهيوني الاسرائيلي الاخير للجنوب . طبعا سيتحدث عن المناطق بالضبط التي احتلت حتى قبل العدو الاسرائيلي . وعن عدد الاصابات في الجانب الاسرائيلي ، وعدد الاصابات في الجانب الفلسطيني واللبناني ، وعن عدد البيوت التي تهدمت ، وكم من الناس هجروا .. كل ذلك بالدقة وبالارقام . وبالتالي المؤرخ ينبغي ان يكون دقيقا في هذه التفاصيل لكن الفنان ليس مضطرا ان يذهب ويتناول كل هذه الامور بدقة ، انما يستطيع ان يتناول نموذجا من كل هذه العملية ، ليعبر عنها بشكل جمالي قد يبالغ فيه ، وقد يختلق حوادث غير موجودة في الحقيقة ، لكن هذا الاختلاق موضوعي ، لان مهمة الفن ليست التعبير عما كان وما هو كائن ، وانما التعبير عما كان وما هو كائن وما محتمل ان يكون . العلم يتناول الواقع من زاوية القوانين العامة . العلم ينظر لما هوى عام في الظواهر ، ويضع لها قوانينها واستنتاجاتها ، في حين الفن لا ينظر للظواهر من قوانينها العامة ، انما يلتقط نماذج صغيرة ، والتقاطه لهذه النماذج الصغيرة لا يغير من جوهر التعبير عن عمومية الظاهرة الاجتماعية . يعني مثلا في الاقتصاد السياسي ، جاء ماركس وحلل ظروف المجتمع الرأسمالي ، واشار الى الاستغلال الطبقي الذي يقع على الطبقة العاملة بشكل ملموس ، وكمثال ، تحدث ماركس في رأس المال عن الاثار السلبية السيئة للتطور التكنيكي لادخال الآلة في الانتاج الرأسمالي على العامل كونها تستنزف (التكنيك الحديث) يستنزف اكبر قدر ممكن حتى من جهده ومن عمله ، بحيث يؤدي بالعمال الى ان يتشوهوا جسديا .. وطبعا هذه عرضها ماركس بقوانين اقتصادية . جاء (شارلي شابلن) بفيلم (الازمنة الحديثة) الذي يوضح عن طريق الانتاج بالسلسلة ، كيف ان العامل يقتصر كل نشاطه بعملية واحدة ، يعمل في شد (برغي) طوال الوقت حتى يخرج الى الطريق ويواصل عمله . في الحقيقة هذا تعبير فني عن واقع الحياة التي تعيشها الطبقة العاملة ، وليس بتعميمات نظرية وبقوانين عامة ، وبالتالي فهنا من الممكن ان هذا النموذج الذي يلتقطه الفنان لا يعبر كل التعبير عن الواقع ، وبالاحرى ان تكون فيه مبالغة ، ولكنه في اخر المطاف يعبر عن واقع هذه الظاهرة الاجتماعية .

هذا فيما يتعلق بالخاصية الاولى من خصائص الفن كونه تعبيرا جدليا ديالكتيكيا عن واقع الحياة المادية .

الفن تعبير عن الايديولوجيا

الخاصية الثانية ، من وجهة النظر الماركسية للفن ، هي تعبير عن الايديولوجية في المجتمع . طبعا من المعروف ان انقسام المجتمع الى طبقات اجتماعية ذات مصالح متناقضة تنشأ الى جانب ايديولوجية الطبقة السائدة ايديولوجية للطبقة المستغلة « بفتح الغين » ، مثلا الطبقة السائدة في المجتمع الرأسمالي هي البورجوازية ، وبالتالي فان ايديولوجية البورجوازية وفكرها هو الذي يسود في المجتمع ولكن الطبقة العاملة (البروليتاريا) الكادحين ، الذين لهم ايديولوجيتهم ايضا .

وهنا فالفنانين سواء كانوا شعراء او كتاب مسرحيات او ممثلين او سينمائيين ورساميين .. الخ ، انما يعبرون عن التزام معين الى هذه الطبقة الاجتماعية ، الى هذه الايديولوجية ، او الى الايديولوجية الاخرى سواء اراد الفنان ام لم يرد ، سواء ادرك ذلك ام لم يدرك . بالضرورة ينبغي ان يعبر بالنموذج الفني في انتاجه الفني عن هذه الايديولوجية او تلك .. اما ان يثبت هذه الحقيقة او ان ينفيها .

يعني مثلا ، عبد الوهاب ، عندما يغني (محلاها عيشة الفلاح) ، ربما عبد الوهاب لم يدرك ما هو اتقصد ، لكن الاغنية عمليا تعبر عن وجهة نظر الطبقات المستغلة التي تحاول خداع وتضليل الفلاحين . فتموه عليهم الاستغلال ، والظروف الحقيقية لحياتهم ، لمعاناتهم .. جاء عبد الوهاب وعبر عنها بهذا الشكل ، فهو التزم موقف البورجوازية ، التزم ايديولوجية البورجوازية . ولكن عندما يذهب (قاسم حول) ويعمل فيلما في اهوار العراق ، يصور الناس ومعاناتهم وصعوبة حياتهم ، هذا في الحقيقة هو التزام بفكر الطبقة العاملة ونظريتها ، التزام بمصالح الجماهير والتعبير عن واقع هذه الجماهير ، فبدلا من ان يذهب مثلا الى ندوة من ندوات الادباء والمثقفين ليعبروا له عن فذلكاتهم الفكرية ، فانه يذهب الى واقع الناس في الاهوار ويصور الحياة اللاانسانية التي يعيشونها ... هذا هو التعبير عن الالتزام بايديولوجية معينة هي ليست ايديولوجية الطبقات السائدة في المجتمع ، لان الطبقات السائدة في المجتمع ترفض سماع هذا الكلام . وهنا ينبغي ان نعرف ان الحديث عن ما يسمى بمدرسة (الفن للفن) هو في الحقيقة حديث فارغ ليس له اساس . لان كل موقف ، كل كلمة هي تعبير عن التزام الى هذا الجانب او ذاك .. ولذلك فان مسألة الفن للفن ليست في الحقيقة الا تعبير عن الالتزام بالايديولوجية البورجوازية . اما الفنانون الذين يلتزمون مصالح وايديولوجية